مُحَمَّدُ بْنُ القَاسِمِ الثَّقَفِي

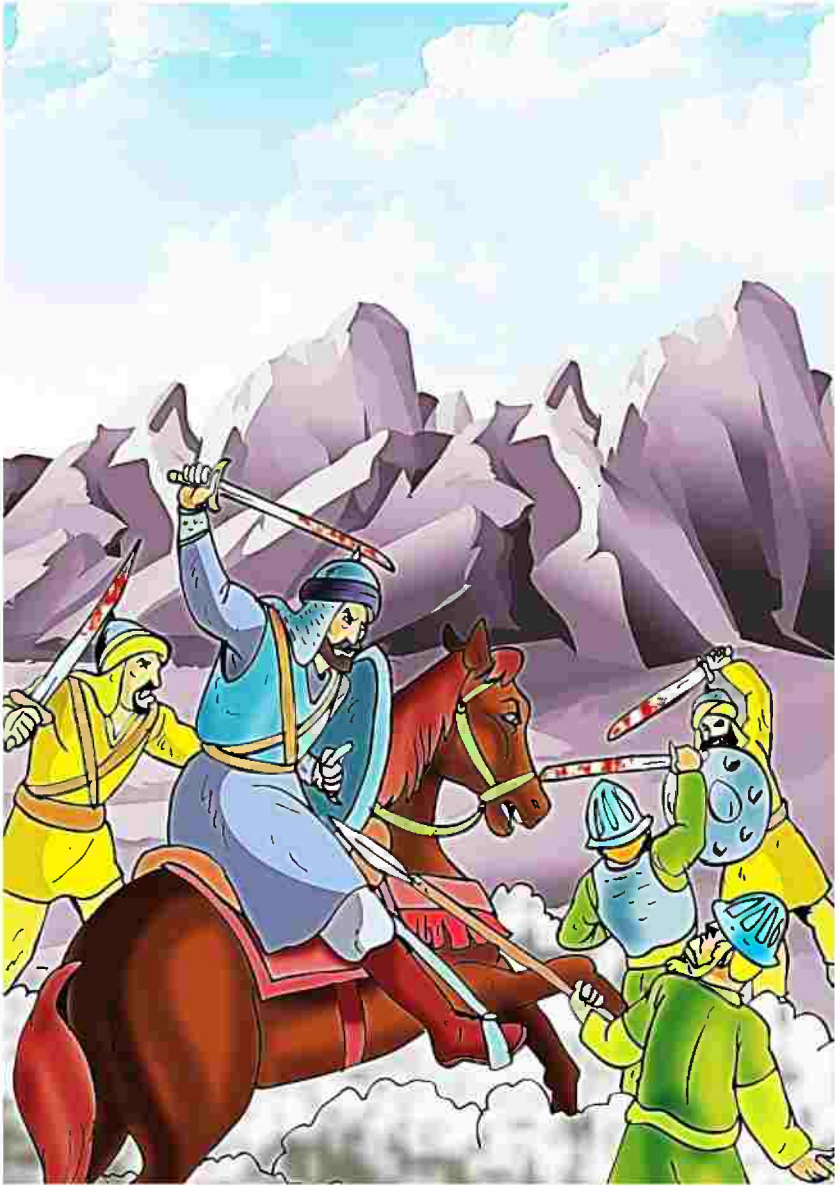

(١)

نَشَأَ مُحَمَّدٌ بْنُ القَاسِمِ الثَّقَفِي فِي مَدِينَةِ وَاسِطِ العِرَاقِيَّةِ، ووَالِدُهُ القَاسِمُ الثَّقَفِي كَانَ وَالِيًا عَلَى البَصْرَةِ، تَحْتَ حُكْمِ ابْنِ عَمِّهِ (الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفُ الثَّقَفِي) الوَالِيَ عَلَى العِرَاقِ، فِي عَهْدِ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ.

ظَهَرَتْ بَرَاعَةُ مُحَمَّدٍ فِي فُنُونِ القِتَالِ مُنْذُ الصِّغَرِ، لَقَدِ اكْتَسَبَهَا مَنَ البِيئَةِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا، حَيْثُ أَنَّ وَاسِطَ مُعَسْكَرٌ للجُنُودِ. وفِي سَنَةِ ٨٨ هِجْرِيَّة، كَانَتْ سَفِينَةٌ قَادِمَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ (يَاقُوتَ) التَّابِعَةِ لِبِلَادِ سَيْلَانَ، عَلَيْهَا نِسَاءٌ مُسْلِمَاتٌ، قَرَّرْنَ العَيْشَ فِي العِرَاقِ، بَعْدَ أَنْ مَاتَ آبَاؤهِنَّ، ولَمْ يَعُدْ لَهُنَّ رَاعٍ فِي بِلَادِهِم.

وعِنْدَ مُرُورِ السَّفِينَةِ بِمِينَاءِ الدِّيبِلْ بِبِلَادِ السِّنْدِ (بَاكِسْتَانْ حَالِيًا)، خَرَجَ عَلَيْهَا قَرَاصِنَةٌ، واسْتَوْلَوْا عَلَى النِّسَاءِ، لَمْ يَرْحَمُوا ضَعْفَهُنَّ وصُرَاخَهُنَّ. وصَلَتْ أَخْبَارُ السَّفِينَةِ إِلَى الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، فَأَرْسَلَ كِتَابًا إِلَى مَلِكِ

السِّندِ، يَطْلُبُ فِيهِ الإفْرَاجَ عَنِ النِّسَاءِ، ولَكِنَّ مَلِكَ السِّنْدِ اعْتَذَرَ، مُتَعَلِّلًا بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى اللُّصُوصِ.

لَمْ يَجِدِ الحَجَّاجُ حَلًا غَيْرَ أنْ يُرْسِلَ حَمْلَتَيْنِ عَلَى مَدِينَةِ الدِّيبِلِ، الأوْلَى بِقِيَادَةِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ نَبْهَانَ السَّلْمِي، والثَّانِيَةُ بِقِيَادَةِ بَدِيلِ البَجْلِي، ولَكِنَّ الحَمْلَتَيْنِ فَشَلَتَا، بَلْ قُتِلَ القَائِدَانِ عَلَى يَدِ جُنُودِ السِّنْدِ.

(٢)

كَانَ الحَاجُّ يَرْغَبُ فِي فَتْحِ بِلَادِ السِّنْدِ مِنْ قَبْلُ، لأَنَّهَا تُشَكِّلُ خَطَرًا كَبِيرًا عَلَى القَوافِلِ التِّجَارِيَّةِ، فَكَثِيرًا مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى السُّفُنِ المَارَّةِ بَيْنَ المَوَانِيءِ العَرَبِيَّةِ والهِنْدِيَّةِ. والآنَ أصْبَحَ فَتْحُ هَذِهِ البِلَادِ أمْرًا حَتْمِيًّا ولَيْسَ هَدَفًا فَقَطْ، وذَلِكَ عِنْدَمَا عَلِمَ الحَجَّاجُ أنَّ مَلِكَ السِّنْدِ قَتَلَ القَائِدَيْنِ، وسَجَنَ الجُنُودَ والنِّسَاءَ عِنْدَهُ فِي الدِّيبِلِ، فَثَارَ غَضَبُهُ، وجَهَّزَ جَيْشًا كَبِيرًا قُوَامُهُ ١٢ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، نِصْفُهُ مِنَ الشِّيرَازِ.

وقَرَّرَ الحَجَّاجُ أنْ يَكُونَ "مُحَمَّدُ بْنِ القَاسِمِ الثَّقَفِي" عَلَى

رَأْسِ هَذَا الجَيْشِ الكَبِيرِ، بِرَغْمِ أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ سَبْعَةَ عَشْرَةَ عَامًا، فَأَصْبَحَ أَصْغَرَ قَائِدٍ فِي التَّارِيخِ.. تَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ بْنِ القَاسِمِ، عَلَىَ رَأْسِ الجُنُودِ الشُّجْعَانِ، يَدْفَعُهُم الإِيمَانُ لتَنْفِيذِ هَذِهِ المُهِمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ، مُهِمَّةُ إِنْقَاذِ مُسْلِمَاتٍ مِنْ أَيْدِي الكُفَّارِ، وتَحْرِيرِ هَذِهِ البِلَادِ مِنَ الجُمُودِ الفِكْرِي، وعِبَادَةِ الإِنْسَانِ، إِلَىَ عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وبَدَأَ الفُتُوحَاتُ بمَدِينَة "قَنْزِبُور" ثُمَّ فَتَحَ مَدِينَةَ "أَرْمَانِيل" فِي طَرِيقِهِ إِلَىَ مَدِينَةِ "الدِّيبِل" وكَرِّ اللُّصُوصِ القَرَاصِنَةِ، وهِيَ كَرَاتْشِي اليَوْمَ مِنْ مُدُنِ بَاكِسْتَانَ عَلَىَ البَحْرِ المُحِيطِ".

لَمْ يَبْخَلِ الحَجَّاجِ بإِمْدَادِهِ بَيْنَ الحِينِ والآخَرِ، فَقَدْ أَرْسَلَ أُسْطُولًا بَحَرِيًا، كَمَا أَرْسَلَ الخَلِيفَةُ الوَلِيدُ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ مَنْجَنِيقًا حَرْبِيًّا ضَخْمًا، لِيُسَاعِدَهُ فِي تَدْمِيرِ الحُصُونِ، وتَدْمِيرِ الصَّنَمِ الكَبِيرِ الَّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَهُ، ويُعَظِّمُونَهُ ويُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ القَرَابِينَ، ويَذْبَحُونَ لَهُ الذَّبَائِحَ..

(٣)

وفِي المَعْرَكَةِ المَصِيرِيَّةِ سَنَةَ ٩٢هـ حَقَّقَ مُحَمَّدٌ الثَّقَفِي النَّصْرَ، وانْتَصَرَ المُسْلِمُونَ عَلَى المُشْرِكِينَ، وقُتِلَ مَلِكُ السِّنْدِ فِي المَيْدَانِ. واسْتَطَاعَ القَائِدُ فَكَّ أسْرِ المُسْلِمِينَ، وتَخْلِيصِ المُسْلِمَاتِ مِنْ أيَدِي اللُّصُوصِ، وبِنَاءِ مَسْجِدٍ فِي المَدِينَةِ، لتُرْفَعُ فِيهِ التَّكْبِيرَاتُ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي فُتُوحَاتِهِ لبَقِيَةِ أجْزَاءِ بِلَادِ السِّنْدِ حَتَّى انْتَهَى مِنْهَا سَنَةَ ٩٦هـ

لَمْ يَقْصِدُ مُحَمَّدٌ بْنِ القَاسِمِ مَدِينَةً إلَّا وفَتَحَتْ لَهُ قَلْبَهَا وذِرَاعَيْهَا، وقَدَّمَتْ لَهُ المُؤنَ وأعْلَافَ الخُيُولِ، لَمَّا سَمِعُوا عَنْهُ مِنْ كَرَمِ أخْلَاقِهِ وحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، ثُمَّ أحَبَّهُ كُلُّ مَنْ فِي السِّنْدِ، برَغْمِ اخْتِلَافِ دِيَانَاتِهِم، وبِذَلِكَ قَامَتْ أوَّلُ دَوْلَةٍ إسْلَامِيَّةٍ فِي بِلَادِ السِّنْدِ والبَنْجَابِ أيْ بِلَادُ بَاكِسْتَانَ الحَالِيَّةُ.

(٤)

وعَزَمَ القَائِدُ مُحَمَّدٌ بْنُ القَاسِمِ الذَّهَابَ إِلَىَ حُدُودِ الهِنْدِ، لَكِنَّهُ تَسَلَّمَ رِسَالَةً مِنَ الخَلِيفَةِ الجَدِيدِ "سُلَيْمَان بْنِ عَبْدِ المَلِكِ"، يَأمُرُهُ فِيهَا بِالعَوْدَةِ إِلَىَ العِرَاقِ.

وبرَغْمِ أَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ مَصِيرَهُ سَوْفَ يَكُونُ المَوْتَ أَوْ السِّجْنَ، إِلَّا أَنَّهُ قَامَ بتَنْفِيذِ الأَمْرِ، وخَرَجَ للسَّفَرِ، فخَرَجَتْ جُمُوعٌ حَاشِدَةٌ، تَرْجُوهُ أَنْ يَبْقَىَ مَعَهُم فِي بِلَادِ السِّنْدِ، ووَعَدُوهُ أَنْ يَقُومُوا بحِمَايَتِهِ مِنْ أَيِّ خَطَرٍ مَا. لَكِنَّ القَائِدَ يَعْرِفُ أَخْلَاقَ الأَبْطَالِ، فَلَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُخَالِفَ أَمْرَ حَاكِمِ البِلَادِ مَهْمَا كَانَ فِي الأَمْرِ مِنْ صُعُوبَةٍ، وعَادَ إِلَىَ العِرَاقِ مُسْرِعًا

كَانَ الخَلِيفَةُ الجَدِيدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ، عَلَىَ خِلَافٍ كَبِيرٍ مَعَ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي، الَّذِي هُوَ ابْنُ عَمِّ وَالِدِ البَطَلِ مُحَمَّدٍ بْنِ القَاسِمِ، فَأَرَادَ أن يَنْتَقِمَ مِنَ الحَجَّاجِ فِي شَخْصِ مُحَمَّدٍ القَاسِمِ.

وعِنْدَمَا وَصَلَ مُحَمَّدٌ بْنُ القَاسِمِ إِلَى العِرَاقِ، قَبَضَ عَلَيْهِ الوَالِيَ الجَدِيدُ صَالِحُ بْنُ عَبدِ الرَّحْمَنِ، كَأَنَّهُ مُجْرِمٌ ولَيْسَ بَطَلًا خَاضَ مَعَارِكَ ضَارِيَةً فِي السِّنْدِ، لِيَرْفَعَ رَايَةَ الإِسْلَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى سِجْنِ مَدِينَةِ وَاسِطٍ، وهُنَاكَ لَقِيَ أَشَدَّ أَنْواعِ التَّعْذِيبِ، حَتَّى مَاتَ البَطَلُ سَنَةَ ٩٥ هـ